



# الواقعية الوجودية في «السمان والخريف» بقلم رجاء النفاذ

طريق المشكلة الانسانية العامة . وبعبارة اخرى بدأ سير  
في طريق « النزعة العالية » .

ولتقف قليلا لتأمل بوضوح اكثر معنى هذا التطور .  
فالمرحلة الاولى في ادب نجيب محفوظ - والتي انتهت  
بظهور الثلاثية - هي المرحلة التي التزم فيها نجيب الاتجاه  
الطبيعي ، كان نجيب - في هذه المرحلة - يرسم ابطاله  
رسما تفصيليا لا يترك كبيرة ولا صغيرة تتصل بهم دون  
ان يسجلها ، كان يرسمهم من الخارج ، ويكاد يحدد طول  
الشخص ووزنه وتركيبه العضوي الدقيق . وهو بعد  
ذلك يرسمهم من الداخل فيحدد تركيبهم النفسي ، كأنه  
في احد المعامل الكيميائية يحلل المواد الى اصولها الاولية ،  
ويحدد نسب العناصر المشتركة في تركيب هذه المواد .

وكان نجيب محفوظ بلا شك تلميذا نابغا من تلاميذ  
المدرسة الطبيعية ، وهو يذكرنا بأدباء هذه المدرسة  
المعروفين مثل فلوير « الذي قرأ في المكتبة الوطنية  
بباريس الفني كتاب لكي يدرس البيئة الاجتماعية والجغرافية  
لاحد ابطاله » ومثل اميل زولا « الذي كان يحمل دفترا  
كبيرا يدون فيه ملاحظاته وكان يقضى اسابيع طويلة  
متجولا بين المخازن التجارية والمصانع المختلفة لكي يجد  
نماذج لقصصه ويجمع الحوادث لهذه القصص » ومثل  
بلزاك الذي كان يستأجر أسرة كاملة بايجار شهري ليعيش  
بينها ويدرس على الطبيعة البيئة والشخصيات في روايته  
« الاب جوريو » .

ونحن لانعرف - حتى الان - كيف كان نجيب  
محفوظ يختار ابطاله . فليس لدينا اي معلومات عن هذا  
الجانب الهام . من شخصية نجيب محفوظ الفنية . لانعرف  
اذا كان يستوحى نماذجه من ابطال واقعيين يعيش معهم  
حياة مباشرة ويعاشرهم معاشرة دقيقة ، أم أنه كان  
يستوحى صورة هذه النماذج من تجاربه وذكريته حيث  
كان يجد البذور الاولى للشخصية ثم يبني عليها من خياله  
الفني الخصب ما يريد من تصورات مختلفة . لا احد يعرف  
بالضبط هل كان نجيب يحمل « دفترا » مثل زولا ، أم  
كان يقرأ كتبا عن بيئاته التي يصورها كما كان يفعل  
فلوير . أم كان يستأجر أسرة مثلما كان يفعل بلزاك ! هذه  
كلها اشياء غامضة نرجو ان توضحها لنا ابحاث من هذا النوع  
في المستقبل . ولكن الذي نعرفه بوضوح هو ان النتيجة  
التي وصل اليها نجيب محفوظ هي نفس النتيجة التي  
وصل اليها الطبيعيون . . . فالشخصيات والبيئات التي

في شهر ديسمبر الماضي كتبت مقالا عن نجيب  
محفوظ كنت احاول أن اعطي فيه نظرة شاملة الى ادبه ،  
ولكنني كنت اشعر في قرارة نفسي بضرورة التاني والحذر  
في تحديد هذه النظرة الشاملة ، فقد كان يراودني احساس  
غير واضح بان نجيب محفوظ لم يقل كل ما لديه بعد ،  
وان طريق التطور والتحول مازال مفتوحا امامه . انه  
ليس من الذين « أتموا رسالتهم » ولم يعد امامهم الا الصمت  
او ان يكرروا انفسهم .

والحق انني كنت قبل ذلك من الذين يعتقدون ان  
نجيب محفوظ انتهى بعد الثلاثية ، ولست ادري بالضبط  
من أين جاءني هذا الاعتقاد . ولكنه على أي حال كان  
اعتقادا يعيش في حياتنا الادبية كما تعيش « الاشاعسة  
القوية » . . . بل مازال هناك من يقول بهذا الرأي الذي  
الان . اما انا فقد تغير هذا الاعتقاد في نفسي منذ أن بدأت  
اتباع انتاج نجيب محفوظ بعد الثلاثية ، لقد ادركت ان  
شيئا جديدا يولد في قلب هذا الفنان وعقله ، وان هذا  
الشيء أخذ في الظهور يوما بعد يوم في ادبه .

ولم يكن هذا الشيء الجديد واضحا امامي عندما  
قرأت روايته « اللص والكلاب » ولكنه ازداد وضوحا  
ودقة بعد أن قرأت روايته الاخيرة « السمان والخريف » .  
لقد تطور نجيب في أسلوبه وتطور في نظرتة الى الحياة  
وموقفه منها . ولم تعد الكلمات عنده تحمل معنى واحدا  
محددا كما كان الامر في انتاجه القديم ، بل أصبحت  
كلماته تعكس كثيرا من المعاني في النفس ، كأنها كلمات  
شعرية مليئة بالظلال والابحاث . وذلك كله على عكس  
أسلوبه القديم الذي كان في معظمه أسلوبا تقريريا خاليا  
- على التقريب - من روح الشعر .

على انني اود ان اتناول هنا نقطة رئيسية في تطور  
نجيب محفوظ ، راجيا ان تكون مظاهر التطور الاخرى  
مجالا للدراسات قادمة .

هذه النقطة الرئيسية هي ان نجيب محفوظ قد  
انتقل من النزعة الطبيعية التي سيطرت على انتاجه حتى  
الثلاثية الى شيء جديد لا اجد اصطلاحا نقديا ينطبق عليه  
بدقة ، ولكنني سأسمح لنفسي بان أسميه باسم « الواقعية  
الوجودية » . وهذا التطور من الناحية الفنية قد حمل  
معه تطورا اخر يسير الى جانبه وينبع منه . فقد انتقل  
نجيب محفوظ من « المحلية » وبدأ يخطو خطوات اولى في

صورها في مرحلتها التي انتهت بالثلاثية يلتزم فسي تصويرها أسلوب المدرسة الطبيعية التي تقوم على أساس من الدراسة الواسعة الدقيقة والمعرفة الشاملة بأدق التفاصيل .

هذا الأديب الطبيعي الذي يعنى بالتفاصيل كل هذه العناية « حمل عصاه ورحل » بعد الثلاثية ، وبدأ يسير في طريق يتعد به عن أسلوبه الفني القديم .

ففي رواية « السمان والخريف » نجد شخصيات يرسمها نجيب محفوظ رسماً عابراً دون ان يهتم بالتفاصيل والجزئيات . فزوجة عيسى بطل الرواية لا تستغرق من اهتمامه أكثر من بضع صفحات ، ولو ان هذه الشخصية النسائية : الغنية ، العاقرة ، نصف المثقفة ، التي تزوجت أكثر من مرة ... لو ان هذه الشخصية وقعت في يد نجيب محفوظ انما كان يكتب « زقاق المدق » او « بداية ونهاية » لتفنن في عرضها وتقديمها ومتابعتها في كسل تفاصيل حياتها اليومية الدقيقة ، وفي أحوالها النفسية المختلفة وطريقة اجتذابها للرجال وتعويض مالدتها من نقص . ولكن نجيب في « السمان والخريف » قد مر على هذه التفاصيل كلها مرة سريعاً بحيث أنك تخرج من الرواية وقد نسيت كل شيء عنها ما عدا انها تمثل محاولة من محاولات بطل الرواية للتغلب على أزمته .

وهكذا ينتقل نجيب من الطبيعية ويتعد عنها ، وهو في الوقت نفسه ينتقل من الاهتمام بالتفاصيل الى الاهتمام بالمشاكل الكلية العامة ، ويتحول من ذلك الفنان الذي كان همه ان يعطينا ادق صورة للبيئة المحلية التي نعيش فيها ، الى فنان يعرض ويناقش مشكلة انسانية عامة ، تعني البيئة المحلية كما تعني البيئة الانسانية كلها .

وهذا هو ما عنيه بانتقال نجيب محفوظ من المحلية الى العالمية في الوقت الذي ترك فيه مذهب الطبيعيين وبدأ يبحث لنفسه عن عالم جديد مختلف .

فالمشكلة التي يعالجها في « السمان والخريف » لها شكلها المحلي الخاص ... ولكن هذا الشكل لا يعدو ان يكون طلاء خارجياً لمشكلة انسانية عميقة تهز عصرنا كله ، تلك هي مشكلة الاحساس بالغربة او عسدم الانتماء او الاحساس بان الانسان ضائع مطرود من هذا العالم .

ان الصورة المحلية للقصة هي « أزمة عيسى » الحزبي القديم الذي تلوث ولم يستطع ان يتلاءم مع العالم الجديد لانه من « الجيل الزائل » ... ولكن هذه الصورة تخفي وراءها الجانب الاخر الشامل الانساني العام .

فبطل القصة يعاني مأساة السقوط والخطيئة ، لقد أخطأ فسقط ، كما أخطأ آدم وسقط من الجنة ، واصبح عليه ان يلتمس طريقاً للخلاص من خطيئته ولو من خلال الألم والعذاب ، ان بطل القصة قد أخطأ خطيئته الكبرى وفقد بساطته وطهارته ، وهو يقول عن نفسه وحزبه :

« كنا حزب المثل الاعلى ، حزب التضحية والفداء ، حزب النزاهة المطلقة ، حزب : كلائم كلا امام كافة المغريات والتهديدات ... كيف أدركت روحنا الطاهرة الشيوخوخة؟ كيف تدهورنا رويدا رويدا حتى فقدنا جميل مزايانا ؟ ها نحن نقلب ابدينا في الظلام يملانا الشجن والشعور بالاثم فواحسرتاه » .

فالقصة في حقيقتها قصة الانسان الذي اكل من التفاحة المحرمة ، قصة الانسان الضائع الذي وقع في الخطيئة واسلمته الخطيئة لعذاب كبير . فقد خرج من جنته السعيدة التي ظنها دائمة أبدية خالدة ... خرج الى حياة اخرى اصبح فيها منغياً ، زائداً عن الحاجة ... لادور له ... يقول عيسى عن نفسه وعن زملائه :

« مع اي عمل سننخذ .. سنظل بلا عمل ، لاننا بلا دور ، وهذا هو سر احساسنا بالنفي كالتزائفة الدودية » .

ولذلك فهو يحلم بالهجرة ، انه يريد ان يترك منفاه الى عالم اخر ، لعله يجد له دوراً في الحياة . لعله ينتمي الى شيء ، وتطمئن روحه ، ويتخلص من « موت الاحياء » الذي هو افظع الف مرة من « موت الاموات » ... وهو يصارح نفسه بالحنين الى الهجرة التي ترمز رمزا قويا الى الرغبة في الخلاص من المأساة التي يعيش فيها :

« تمنى يوماً لو كان للمصريين - كما لغيرهم - جالية في امريكا الجنوبية ليهاجر اليها ... وقال ساخطاً ان المصريين زواحف لا طيور ... وراوده حلم بتغيير جذري في حياته ... ولكنه لم يكن يفعل سوى العبت » .

هذه هي المأساة الوجودية التي يعيش فيها البطل ، او هذا هو جوهرها : الغربة والضياع والانفصال عن الواقع والرغبة في الهجرة من « هذا الواقع » الذي اصبح منفي للانسان .

على ان نجيب محفوظ لا يقف على سطح هذه المأساة الوجودية ، بل يندفع الى اعماقها ، ويصورها تصويراً امثرياً في عدد اخر من المواقف ... على رأسها موقفان عنيفان يؤكدان المعنى الوجودي لهذه المأساة .

اما الموقف الاول فيتضح امامنا عندما يصرخ البطل في داخله ، ومن خلال مرارة الشعور بالوحدة ... قائلاً لنفسه « ما حوجني الى مسكن » ... ان الشعور بالحاجة الى « الانتماء » ، بالحاجة الى التخلص من « العراء الروحي »

في الاسواق

## ثُمَّلَاتٌ وَجُودِيَّةٌ

بقلم الدكتور

زكريا ابراهيم

■ لون جديد لم يعرفه الادب العربي من قبل

■ خواطر ويوميات تشتمل بالفكر والحياة وتتناول مشاكل الوجود والموت والعدم والظلام ، وتذكرنا بيوميات كيركجورد وغابرييل مارسيل .

■ مذكرات حية تلوح كلمع من النجوم وسط حلقة الجفاف الاكاديمي .

■ كتاب هام يعيش قضية « الفكر » وسوف يكون بدء سير في طريق جديد من طرق التعبير بالعربية

منشورات دار الاداب

الثن ٢٥٠ ق.ل

هذه هي وثبة التاريخ ... وهي الوثبة التي يمكن ان تفسر لنا هذه الصورة المفزعة التي تعيش في وجدان نجيب محفوظ بعنف والتي صورها لنا في « اللص والكلاب » و « السمان والخريف » معا وهي : انكار الابنة لايها ، او انكار الجديد للقديم بعنف وقسوة .

ولا أعرف رمزا أكثر هولاً وفزعا لمأساة الانسان من هذا الرمز الذي يتجسد في صورة انكار الابنة لايها . هكذا يرتفع نجيب محفوظ ليصور لنا مأساة انسانية عامة تستمد جذورها من واقع مجتمعنا وظروفه ، ولكنها تعلق بعد ذلك الى مستوى الانسان في كل مجتمع اخر . وفي هذه « المأساة الانسانية » يقترن نجيب من تناول الوجودي لمأساة الانسان دون ان يفرق في رمزية « الغريب » للبير كامى مثلا ، فما زال بين نجيب محفوظ وبين الواقع رباط قوي ، ومن هنا اعتقد ان تعبير « الواقعية الوجودية » هو اقرب تعبير لتصوير هذا الاتجاه عند نجيب محفوظ .

ومما يساعدنا على كشف هذا الاتجاه الوجودي عند نجيب محفوظ ايضا انه يستعمل التعميرات الشائقة في الادب الوجودي مثل « المنفى » و « العبث » والاحساس بان الانسان « زائد عن الحاجة في هذا العالم » . وهو لا يستعملها كإلغاز عادية ، بل يستعملها بنفس العمق الذي نحسه في الادب الوجودي الاصيل .

على اننا نلاحظ ان نجيب محفوظ يهتم في اعماله الاخيرة بالتصوف ... ففي اللص والكلاب نجد الشيخ الجندي . وفي السمان والخريف نجد « سمير » وكلاهما قد لجأ الى التصوف كماوى روي يجعل آلام الحياة ومشاكلها محتملة وسهلة . ولم يكن نجيب من قبل يعنى بالتصوف كل هذه العناية ، مما يؤكد اتجاهه الى الاهتمام بالمشاكل الانسانية الكبرى ، انه يهتم بمشكلة « الانسان والعالم » لا « الانسان والمجتمع » فقط .

وفي « السمان والخريف » ربما لاول مرة في ادب نجيب محفوظ ، يلتقي البطل في النهاية مع صوت يدعو الى ان يتخلص من ازمته وورطته ، وان يحاول التغلب على جرحه وعجزه والوقوف على قدميه . ويحاول البطل في السطور الاخيرة ان يلحق بهذا الصوت الذي يعمل على بعثه من العدم ، وانتشاله من حفرة العجز واليأس . ويبدو هذا الصوت كأنه حلم ، او كأنه نوع من الالهام الداخلي العميق ... وما كان نجيب من قبل يهتم بالاحلام ، وما كان يهتم بالالهام الداخلي .

قال عيسى للشباب المجهول :

« - الا ترى ان الدنيا كلها مملدة ؟

- ليس عندي وقت للملل

- ماذا تفعل اذن ؟

- اعابت المتاعب التي الفتها وانظر الى الامام بوجه

مبتسم ، بوجه مبتسم رغم كل شيء ، حتى ظن بي البله . .

- وما الذي يدعوك الى الابتسام ؟

فقال الشاب بلهجة اكثر جدية :

هذا العراء القاسي الاليم الذي يعاينه الانسان عندما لا يكون له في الحياة فكرة او هدف او دور يقوم به عن وعي واقتناع ... عندما لا يكون منتما الى شيء ما ... عندما تصبح حياته مجرد انتظار الموت .

ومن الحقائق ذات الدلالة العميقة ان الشعور بالحاجة الى مسكن عند بطل « السمان والخريف » هو نفسه الشعور بالحاجة الى « المسكن » عند بطل قصة « اللص والكلاب » ... فعيسى وسعيد مهران يبحثان عن مسكن ، ويشعران بانهما ضائعان حقا ما داما لا يجدان هذا المسكن ... الا يوحى الينا هذا الموقف ابحاء واضحا بان نجيب محفوظ انما يرمز بالمسكن الى حاجة الانسان الى هدف بطمئن اليه ، وقاعدة - في حياته الروحية - يستند عليها ؟ ان المسكن المفقود في الروايتين هو رمز الخروج من الازمة التي يعاينها الانسان الوحيد ... اللامتني .

اما الموقف الاخر الذي يكشف لنا عن ازمة الانسان في صورتها الجديدة كما يتصورها نجيب محفوظ فهو ان ابنة « عيسى » - بطل السمان والخريف - تنكره ولا تعرفه . وهذه هي نفسها الازمة التي عاشها من قبل سعيد مهران بطل « اللص والكلاب » فابنته - ايضا - تنكره ولا تعرفه بل وتخاف منه .

ويمكننا ان نتأمل هذا الموقف المفزع طويلا . فما معنى هذه الصورة التي تلح على وجدان نجيب محفوظ . . صورة انكار الابنة للاب ، ولماذا تكررت في روايتين متتابعتين ؟

ان هذه الصورة - في اعتقادي - ترمز الى شيء كبير يعيش في وجدان هذا الفنان ... انها يمكن ان تدلنا على ان جانباً من مأساة الانسان في نظر هذا الفنان هو ان الاسرة قد تفككت حتى انكرت الابنة اباه ، وان المأساة الانسانية المعاصرة اشبه بالصورة الدينية ليوم القيامة حيث « تذهل كل مرضعة عما أرضعت » ... ان الانسان قد اصبح وحيدا ، لا يجد الدفء حتى في اسرته ، انه منفي حتى من الاسرة ... كما نفى الانسان الاول من جنته .

وهذا المعنى الانساني الكبير ليس هو المعنى الوحيد الذي تحتمله هذه الصورة المفزعة ... فهناك معنى اخر كثيرا مانقراه بين السطور في اعمال نجيب محفوظ الاخيرة ... بل ان هذا المعنى بالذات له جذور في اعماله الاولى ... ذلك هو ان التطور - رغم انه حركة انسانية - كثيرا ما يحمل في طريقه آلاما عنيفة . فانكار الابنة للاب يمكن ان يكون تعبيرا عن آلام التطور ومآسيه، حيث ينكر الجديد القديم ، وخاصة في تلك المراحل العنيفة للتغير ، والقرن العشرون من أبرز مراحل التغير في تاريخ الانسان . بل يكاد نجيب محفوظ يعبر تعبيرا مباشرا عن هذا الجانب العنيف للتطور عندما يقول عن بطول السمان والخريف :

« أيقن الآن انه قضى عليه ان يعاني التاريخ في احدى لحظات عنفه حين ينسى ، وهو يشب وثبة خطيرة ، مخلوقاته التي يحملها فوق ظهره فلا يبالي ايها يبقى وايها يختل توازنه فيهوى » .



نجيب محفوظ

– أحلام عجيبة ، مارأيك في ان نختار مكانا انب  
للحديث ؟

فقال عيسى بسرعة :

– آسف الحق أني شربت كأسين ، وأرغب نفسي  
الراحة .

فقال الآخر بأسف :

– أنت تود أن تجلس في الظلام تحت تمثال سعد

زغول \*

وله يجب عيسى بكلمة فقام الآخر وهو يقول :

– أنت لا ترغب في حديثي فلا يجوز أن أزعجك أكثر

من ذلك ...

وتحول عنه ماضيا نحو المدينة .

وتابعه بعينيه وهو يتعد . ياله من شاب غريب !

تري ماذا يفعل اليوم ؟ ولماذا بنظر الى الامام بوجه  
مبتسم ؟

وظل يتابعه بعينيه حتى بلغ اخر الميدان . لم يكن

سيء النية كما توهم ، ولم يقصده بسوء ، فلم لم يشجعه

\* والجلوس في الظلام تحت تمثال سعد زغول معناه ان البطل  
تمسك بالماضي متعلق به ، فهو وفدي في عالم لم يعد للوفد فيه  
مكان ولا دور ... ان البطل يحن الى الماضي حيث كان « شيئا » في  
الحياة ، وحيث كان له دور وآمال وتطلعات ، انه يحاول ان يتعلق  
بخيوط الماضي الرفيعة الواهية لعلها تعطيه من ذكرياتها بعض الدفء  
وهو غارق في ازمته .

على الحديث ؟ ألم يكن من الممكن ان يستعين به على مغالبة  
الملل في هذه الساعة من الليل ؟ ألم يكن من المحتمل ان  
يجرهما الحديث الى شيء مشترك تطيب به السهرة ؟

ورآه وهو يختفي متجها نحو شارع صافية زغلول .

وقال لنفسه أستطيع ان الحق به على شرط الا اضيع  
ثانية في التردد .

وانتفض قائما في نشوة حماس مفاجئة ، ومضى في

طريق الشاب بخطى واسعة ، تاركا وراء ظهره مجلسه  
الفارق في الوحدة والظلام .

هكذا يرتفع نجيب محفوظ من تصوير بيئة معينة

الى تصوير الانسان من خلال هذه البيئة ... من الجزئيات

والتفاصيل الى الامور الكلية العامة ... من المحلية الى  
الموضوعات والقضايا العالمية ...

من « الواقعية الطبيعية » الى الواقعية الوجودية .

ونجيب محفوظ ينتقل الى هذه المرحلة الجديدة وقد

استعد لها استعدادا واضحا ، فقد اصبح أسلوبه مليئا

بالندى الشعري الحلو ، بعد ان كان جافا موضوعيا قاسيا .

واصبحت لكتابته موسيقى داخلية تتسرب الى روحك

تسربا عميقا وتشعرك حقا ان الفنان الذي كان يتحدث عن

الانسان في مصر فقط اصبح يتحدث عن الانسان في

العالم .

رجاء النقاش

القاهرة

دار الاداب تقدم

# دُرُوبُ الحُرِّيَّةِ

رائعة الكاتب الوجودي الكبير

جان بول سارتر

سن الرشد

وقف التنفيذ

الحزن العميق

في اجرائها الثلاثة :

نقلها عن الفرنسية نقلا امينا دقيقا

الدكتور سهيل ادريس

\* نموذج الادب الوجودي في مفهومه الصحيح العميق

\* تحفة ادبية يجب ان لا تخلو منها مكتبة

سن الرشد : ٥٥. ق.ل

وقف التنفيذ : ٦٥. ق.ل

الحزن العميق : ٥٥. ق.ل